ب ـ المرأة الواقعية :

ونقصد بها المرأة الحقيقية الموجودة التي للشاعر علاقة ما بها، وهذه المرأة قد تكون زوجة، أو مغنية، أو ساقية في مخمرة، أو سبية، أو جارية، أو امرأة عدو، فيصورها الشاعر بحسب رؤيته لها من جهة الصفات النفسية والجسدية، دون أن يضفي عليها الصفات المثالية المترسبة عن الديانات القديمة، على أننا قد نجد صفة أو صفتين تردان في حق هذه المرأة دون أن يكون المقصود هو المعنى المثالي المقدس.

والمرأة القينة أي الراقصة أو مغنية الملهى من أبرز صور المرأة الواقعية، فقد وصفها أغلب الشعراء لأنهم احتكوا بها في حياتهم ولا سيما في شرخ الشباب حين يغشون الملاهي والحوانيت وهي الأماكن التي يشرب فيها الخمر ويكون فيها الطرب والغناء ولقاء الأصحاب، وهي التسلية الوحيدة في ذلك الوقت. وعادة ما تكون هذه الحوانيت ملكا لليهود الخبراء في اختيار أجود أنواع الخمور وأحسن القيان . يقول طرفة بن العبد في ذلك:

نداماي بيض كالنجوم وقينة تروح علينا بين برد ومجسد
رحيب قطاب الجيب منها رفيقة بجس الندامى بضة المتجرد
إذا نحن قلنا أسمعينا انبرت لنا على رسلها مطروفة لم تشدد

فهذه المرأة بيضاء كالنجمة وليس كالشمس المقدسة، كثيرة الحركة، يلمسها الزبائن فلا تكترث، مطيعة لهم .

وقد يصف الشاعر امرأة عدوه بصفات قاسية ضمن هجائه ومساجلته، فيصورها فارة خائفة مهانة، لا تجد من يحميها من أهلها المهزومين فتقع في الأسر والسبي، يقول بشر بن أبي خازم :

تبيت النساء المرضعات برهوة تفرأ من هول الجنان قلوبها
بني عامر إنا تركنا نساءكم من الشل والإيجاف تدمى عجوبها

أما بالنسبة للزوجات فغالبا ما يعمد الشعراء إلى تصويرهم بصور سلبية، فهن يمنعن الرجل من الخروج للقتال، كثيرات الشجار، حقودات، يطلبن المال باستمرار، دائمات التذمر، لا يحتملن الأيام الصعبة، يشخن بسرعة وما تزال في الرجل قوة ورجولة . ومن أمثلة ذلك تصوير حميد بن ثور لزوجته بطريقة هزلية :

لقد ظلمت مرآتها أم مالك بما لاقت المرآة كان محردا
أرتها بخدين غضونا كأنها مجر غصون الطلح ما ذقن فدفدا
وأسنان سوء شاخصات كأنها سوام أناس سارح قد تبددا

فهي حيثما نظرت إلى المرآة رأت وجها معوجا، فيه أخاديد طويلة كغصون النخل غير المقطوعة، وأسنان متفرقة كقطيع ابل متفرق . ومثالنا عن تصوير الصفات النفسية للزوجة مقطع لعلباء بن أرقم الذي يقول :

ألا تلكما عرسي تصد بوجهها وتزعم في جاراتها أن من ظلم
أبونا ولم أظلم بشيء عملته سوى ما ترين في القذال وفي القدم
فيوما توافينا بوجه مقسم كأن ظبية تعطو إلى ناظر السلم
ويوما تريد مالنا مع مالها فإن لم ننلها لم تنمنا ولم تنم

فهو يصورها متقلبة المزاج، يوما تكون ضاحكة راضية ويوما تريد ضم مال زوجها إلى مالها، فإن لم يرض أحالت ليله إلى سهر بصراخها وعويلها .

عادة ما يصف الشعراء المرأة الواقعية وهي في حركة دائبة تمارس عملها وحياتها بصفة طبيعية، على خلاف المرأة المثالية التي تصور كتمثال أو دمية، وقد يعمد الشاعر إلى إطلاق صفات المرأة المثالية على المرأة الواقعية وهذا ما يعد انحرافا فنيا، لتقادم العهد بين الدين القديم وبين الشعر المتأخر، ومن أمثلة ذلك ما وقع فيه الأسود بن يعفر حين ربط بين المرأة والقمر، رغم أن المعهود هو وصف المرأة بالشمس الأم وليس بالقمر الأب.